

الحدائثة الشعرية في عين الناقد الحديث

د. سالم بن محاد بن علي المعشني¹

¹جامعة ظفار - صلالة - سلطنة عمان

d.salimmahad@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/02/09 تاريخ القبول: 2023/05/08 تاريخ النشر: 2023/06/4

الملخص :

الحدائثة الشعرية ارتبطت - في مفهومها - بكل ما هو جديد . خرجت من الغرب على شكل ثورة عارمة ضد الكنيسة والدين ، وضد الطبقات الكلاسيكية البرجوازية ، ودعت إلى الحرية وتمجيد الذات ؛ وتمثلت بظهور الرومانسية التي كانت انقلابا جذريا على الكلاسيكية . وقد تبلور - مفهوم الحدائثة - في العالم العربي بُعيد الحرب العالمية الثانية . لاقت الحدائثة الشعرية من قبل المحافظين معارضة شديدة ؛ على اعتبار أنها دعوة هدامة تحمل في بذورها تحطيم قواعد الأسلاف ، وتعتدي على التراث والتقاليد الأدبية العريقة ، وتنتمى مع الفوضى . لكن الحدائثة شقت طريقها ووجدت ضالتها لدى شعراء وكتاب؛ خاصة من جيل الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم وقدمت مدرسة (التفعية) ومدرسة قصيدة (النثر) أدبا راقيا ، ونقدا مواكبا لموضحة الحدائثة دون أن تخذل التراث ، أو تسيء إلى المعتقدات ؛ باستثناء بعض الأصوات الشعرية التي لا تشكل خطرا يُذكر . ثم رأينا آخر المطاف كوكبة من شعراء الوطن العربي المعاصرين خاصة شعراء الرمز والوطنية ، وشعراء المد القومي يكتبون شعرا راقيا ، ويصدرون دواوين شعرية خالدة ، وقد جددوا في المضامين الشعرية بما يتوافق ومتطلبات العصر ، ومتطلبات موجة الحدائثة ؛ وفي ذات الوقت قدموا قوالهم الشعرية - إلا فيما ندر - من خلال القصيدة البيتية المقفأة .

الحدثاء الشعريّة في عين الناقد الحديث

Summary: Poetic modernity was associated - in its concept - with everything new. It emerged from the West in the form of a massive revolution against the church and religion, and against the bourgeois classical classes, calling for freedom and self-exaltation; It was represented by the emergence of romanticism, which was a radical coup against classicism. The concept of modernity crystallized in the Arab world after the Second World War. Poetic modernism was vigorously opposed by conservatives; Considering that it is a destructive call that carries in its seeds the breaking of the rules of the ancestors, and assaults the ancient literary heritage and traditions, and identifies with chaos. But modernity made its way and found its way to poets and writers. Especially from the generation of the sixties and seventies of the last century, and the school of (activation) and the school of poem (prose) presented sophisticated literature and criticism that kept pace with the fashion of modernity without harming the heritage or offending beliefs. With the exception of some poetic voices that do not constitute a significant danger. Then, at last, we saw a group of contemporary poets of the Arab world, especially poets of symbolism and patriotism, and poets of nationalism, writing elegant poetry and issuing immortal collections of poetry. At the same time, they presented their poetic templates - except in rare cases - through rhymed household poems.

الهدف والمنهج:

تهدف الدراسة إلى تقديم قراءة نقدية تحليلية من خلال المنهج الوصفي التاريخي حول مفهوم الحدثاء الشعريّة في العالم العربي ، وذلك من خلال عرض وتحليل لمجموعة من أطروحات ومقولات كتاب ونقاد وشعراء معاصرين ؛ بغية التعرف على منجزات الرواد الأوائل ، وما خلفه جيل الستينيات والسبعينيات - تحديداً - في هذا المجال .

المقدمة :

إذا كان مفهوم الحداثة الشعرية قد عانى غموضا كبيرا في الفكر الغربي والأوروبي فلاشك أنه في الثقافة العربية أكثر غموضا ، وأشد تعقيدا ، وأكثر مجابهة من أنصار القديم ؛ وذلك لطبيعة الشعر العربي الغنائي والتصاقه بوجودان المبدع والمتلقي على حد سواء ، واعتماده على نمط إيقاعي ثابت اعتادت عليه الأذن العربية ، ولا تلتذ بغيره . وعندما اقتضت سنة الحياة التحول من حال إلى حال ؛ فلاشك أن هذا التحول سيتطلب جديدا في كل شيء ؛ ومن هنا ارتبط مفهوم الحداثة بكل ما هو جديد . ويمكن تعريف الحداثة اصطلاحا " في أنها عبارة عن نمط في الحياة، والأفكار، والآراء، وذلك من قبيل المنهج التغييري أو الانقلابي غير الثابت، الذي يدعو إلى التجديد باستمرار، ويرفض الانصياع لكل ما هو قديم، ويدعو إلى التطور والتجديد، وإعادة بناء الإنسان من جديد على نحو أفضل مما كان عليه في السابق¹

وإذا كانت الحداثة عند الغرب قد بدأت بالظهور في أواخر القرن التاسع عشر وعلى يد الشاعر الفرنسي بودلير، صاحب ديوان (أزهار الشر)، فقد ظهرت عند العرب متأخرة ؛ إذ لم تتبلور كمفهوم نقدي قبل الحرب العالمية الثانية . وقد رفعت جماعة الفن والحرية شعار تحرير الفن من الدين والوطن والجنس . ومهما يكن فجذلية الصراع بين أنصار القديم، وأنصار الجديد ستظل قائمة دواليك مادام هناك إنسان. وفي تعريف الحداثة رأى الكثير من الأدباء الغربيين أنّ الحداثة هي عبارة عن التعصب للحاضر ضد الماضي ؛ كونها لا تميل إلى السلطة القديمة أو إلى كل ما ينتمي إلى الحقبة الماضية، بقدر ما تُمجّد الحاضر وتسعى إلى الانفتاح على كل جديد مُقبل . أمّا الحداثة عند العرب فهي إبداع وخروج عمّا سلف، وهي لا ترتبط بزمن معين أو باتباع أشكال تعبيرية شعرية

¹ مها دحام ، الحداثة في الشعر العربي المعاصر ، موقع موضوع ، مقالة أكتوبر 2021م

الحداثة الشعرية في عين الناقد الحديث

معينة، بل هي اتخاذ موقف معين تجاه الحياة بشكل عام، وتجاه الشعر بشكل خاص.²

تحاول هذه الدراسة أن تجيب على عدة تساؤلات حول موضوع " الحداثة الشعرية " وذلك من خلال قراءة مقولات لمجموعة من كبار النقاد والشعراء في الوطن العربي ، ومن تيار الحداثة تحديدا ؛ دون أن تغفل الأصل الذي خرجت منه موجة الحداثة وهو الغرب ؛ حيث استعرضت الدراسة بعض مقولات " بودلير ومونتاليه وبريفردي وساليناس " واعتمدت كثيرا في قراءتها وتتبعها لهذا الموضوع في العالم العربي على مجموعة من النقاد والشعراء ؛ مثل " أدونيس وعماد حسيب ، ومحمد حمود ، ومحمد عبد المطلب " وغيرهم من المراجع التي قدمت طرحا مفيدا في موضوع الحداثة الشعرية . وقد فندت الدراسة الأسباب التي جعلت تيار الحداثة في فترة من الفترات في عالمنا العربي في شبه عزلة من معظم جمهور التلقي . ثم كيف قدم الناقد العربي المسوغات المقنعة والتي ركزت في معظمها على ضرورة مسايرة روح العصر والتفاعل مع معطياته ؛ وعدم فهم الحداثة الشعرية بأنها تنكر للتراث وتمرد على الماضي ولكنها بتعبير أدونيس " وحين نقول بتجاوز الماضي فإننا نعني - تحديدا - تجاوز لتصورات معينة للماضي أو لفهم معين أو لبني تعبيرية معينة أو لمعايير وقيم معينة ، ولا يعني إطلاقا أننا ننفك وننفصل عنه كأنه أصبح عضوا ميتا زال وتلاشى "

الدراسة : الحداثة والناقد المعاصر:

اقتضت سنة الحياة أن يسير الإنسان والتطور جنبا إلى جنب ، والانتقال من طور إلى طور آخر . وفي طول مكوث الإنسان على مظهر واحد دون تغير ؛

² ينظر ، سهيل عبد اللطيف محمد الفتياي، الحداثة عند يوسف الخال، دراسة في تجربته النقدية والشعرية، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، 2010م ، صفحة : 30

د. سالم بن محاد بن علي المعشني

مدعاة للسأم والملل ، وقد سبق أبوتمام إلى هذه الفلسفة وقدم الدليل المادي على ذلك عندما قال :

وَطَوَّلُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ // لِدِيَابِجَتِيهِ فَاِغْتَرِبَ تَتَجَدَّدُ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَيْدَتِ مَحَبَّةً // إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ³

فهل الحداثة نقيض لكل قديم ؟ أم هي في كل ما نسمعه ونقرؤه تحت مصطلحات مختلفة من قبيل : القديم والجديد ، والأصالة والمعاصرة ، والتقليد والحداثة ؟ أم هي التعقيد لمرحلة جديدة لها طابعها المميز الذي اقتضته سنة التحول والتطور ؟ .

حول هذه التساؤلات يقدم الدكتور عماد حسيب تعريفا لمفهوم الحداثة فيقول : " الحداثة ذلك الكائن الذي تسلسل إلى عالمنا الشعري ، وسرى مفعوله سريعا وأصبح له مكان على ساحة الشعر والشعراء " وخلص إلى قوله : " اختلفت الآراء حول تحديد مفهوم الحداثة ، وهناك من خلق علاقة تناقض بين الحداثة والقدم ، وهناك من ربط بين الحداثة والمعاصرة ، والحداثة والحديث . والمعجم الحديث لا تقدم تفسيرا للحداثة إلا باعتبارها نقيضا للقدم ، يقول صاحب القاموس المحيط : حدث حدوثا وحداثة نقيض قدم بضم الدال ، وتكرر المعنى في مختار الصحاح وتاج العروس ولسان العرب ."⁴

لا ينبغي أن يفهم قارئ الأدب العربي ، ومتلقي الشعر منه - خاصة - أن هناك ثمة قطيعة بين التراث والحداثة ؛ بالعكس ما كان قديما في زمن ما ، كان جديدا في زمانه ومرحلته ، وهكذا دواليك . فالمسألة ليست قائمة على القطيعة والمغايرة في المضامين ، ولكنها تأطير لتجربة جديدة لها تداعياتها وظروفها

³ ينظر، موقع الديوان ، العصر العباسي ، قصيدة سَرَتِ تَسْتَجِيرُ الدَّمَخَ خَوْفَ نَوَى غَدٍ

⁴ د. عماد حسيب محمد ، بنار النص ، قراءة تفكيكية في الشعر الحدائي ، دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ،

الحدث الشعري في عين الناقد الحديث

وأسماءها " فالحدث في الشعر لا يمتاز بالضرورة على القدماء فيه ، ولكنها تفترض بروز شخصية شعرية جديدة ، ذات تجربة حديثة معاصرة ، وهذه التجربة فريدة تعرب عن ذاتها في المضمون والشكل معا ، فلا تنتظم أفكارا ومعاني في ذهن تحشد لها الصور الخارجية والألفاظ البيانية بل تخاطبك بوداعة الطفل وشغف المؤمن وحرارة العاشق ، وتواضع الوثائق من نفسه ، وتنتصب أمام عقلك ووجدانك بكل جدتها وبكل فرادتها في حفرة المعلق والمجهول والمتناقض ، وبكل تعاستها في انتظار العابر والآتي ، وبكل انكساراتها وانتصاراتها في وجه الحياة والموت " ⁵.

وبالرغم من أن أدونيس يعتبر واحد من أقطاب مدرسة الحدث الشعري ؛ خاصة وأنه رائد مدرسة قصيدة النثر ؛ هذه المدرسة التي أصابت كلا من القصيدة التقليدية وقصيدة التفعيلة في مقتل ؛ نتيجة خرقها نظام الإيقاع الخارجي منها والداخلي. بالرغم من ذلك إلا أننا نجده من أصحاب النظرية التوفيقية في تحديد مفهوم الحدث ؛ حيث يقول :

" والحدث العربية في مستواها الإبداعي مسكونة بهذه الإبداعات الماضية الكبرى . وحين نقول بتجاوز الماضي فإننا نعني - تحديدا - تجاوز لتصورات معينة للماضي أو لفهم معين أو لبنى تعبيرية معينة أو لمعايير وقيم معينة ، ولا يعني إطلاقا أننا ننفك وننفصل عنه كأنه أصبح عضوا ميتا زال وتلاشى " ⁶

واضح من كلام أدونيس السابق أن المسألة في تحديد مفهوم الحدث لا تقوم على القطيعة بين القديم والجديد ، أو القديم والحديث المعاصر ، وإنما هي نظرة بينية توفيقية ؛ ففي قوله (والحدث العربية في مستواها الإبداعي

⁵ محمد حمود ، الحدث في الشعر العربي المعاصر ، (بيانها ومظاهرها) ، الشركة العالمية للكتاب ، ط1 ، 1996م ، ص: 58 .

⁶ أدونيس ، كلام البدايات ، دار الآداب بيروت ، ط1 ، 1989م ، ص: 144

د. سالم بن محاد بن علي المعشني

مسكونة بهذه الإبداعات الماضية الكبرى) دليل على انطلاقه في التحديث من التراث ؛ إنما ماهو مطلوب أن يتجاوز المبدع تصورات معينه ، أو فهم معين ، أو بنى تعبيرية معينه ، أو فيما يقوله من ضرورة تجاوز معايير وقيم معينة .

وعنما نتقدم قليلا في تعريف الحداثة الشعرية ، لنستبطن ماهية الكتابة ، وحتى نمناها بعدا فلسفيا مغايرا لما عهدناه عند أساطين التراث من شعراء ونقاد لن نجد - في هذا الصدد- أيضا أهدي من (أدونيس) الذي أطلق مفهوما آخر للكتابة الحداثية أسمها (الكتابة الآلية) ، وتعني الكتابة العفوية غير المدروسة التي تفلت من الإكراهات الآلية من العقل الرقيب ، والفكر النقدي والمواصفات ، الكتابة الآلية تحرر من اليومي وعوائقه ، تدفع الكاتب للخروج من أناة المؤلف إلى فضاء آخر . هذه الكتابة تفصح عن عالم هو نفسه غريب غامض محير ؛ إنها كتابة تيه ، لعالم هو نفسه عالم تيه .⁷

إن العفوية التي يريدها أدونيس هي الطرف الآخر للجدلية القائمة بين (العقل والخيال) . لقد جرت سنة الاعتدال في الشعر أن يكون الإبداع الأدبي نتاج (عقل وخيال) دون أن يطغى أحدهما على الآخر ؛ وإن كان الأول (العقل) يعول عليه كثيرا في الصورة الشعرية التقليدية / التراثية ، بينما هو شيء معيب عند المعاصرين أو الحداثيين ، خاصة أولئك الذين يطلقون كامل الحرية للخيال دون رقابة من العقل إلا فيما ندر! وليس أدل على هذا من كلام أدونيس الذي مضى حول خصائص الكتابة الآلية تلك التي تفلتت من إكراهات العقل الرقيب ، والفكر النقدي والمواصفات لينتهي بها المطاف في أدق خصائصها أن تعبر عن ذلك العالم الغريب الغامض عالم التيه ؛ لذلك لابد أن تلتف هذه الكتابة بعباءة داكنة من الغموض ، بعد أن كانت الكتابة التقليدية مدثرة بثوب فضفاض من الوضوح .

⁷ ينظر ، أدونيس ، الصوفية والسريانية ، دار الساقى ، بيروت ، ط1 ، 1992م ، ص : 133-137.

الحدثاثة الشعرية في عين الناقد الحديث

ولا يغالي الباحث في مفهوم الحدثاثة أن يلتبس عذرا في كثير من أطروحات الحدثائين عندما يعيد النظر في تفحص طبيعة الظرف الحضاري وما أفرزه السياق التاريخي المائج بالتناقضات ، المليء بالاستلاب ، مما كرس ثقافة قائمة على الضبابية وعدم الوثوق باطروحات الحلم القومي الذي لم يصمد قليلا أمام وقائع التاريخ ؛ من هنا جاءت الكتابة انعكاسا لهذه الحالة ؛ وحسبها وإن لم تؤت ثمارها أنها حاولت الخروج من دائرة الرتابة والحصار؛ لتعبر عن ظروف العصر أو المرحلة " ولاشك أن حركة الحدثائين وجدت تربتها الخصبة في الظروف التاريخية التي صاحبت انكسار الحلم القومي والاجتماعي في ظروف بالغة الدرامية ، وهو ما أتاح لها أن تحتل مساحة غير محدودة بوصفها إفرازا لهذه المرحلة الملئية بالاستلاب ، فكانت الشكلية أداة مستقبلية تحاول أن تعيد للكلمة بعض حقوقها المشروعة وتعيد للبناء الصوري أهميته كرد فعل لهذا المأزق الحضاري ، أي أن اللغة صارت بديلا لواقع ثقافي متهريء يمكن أن يقود إلى عملية خروج إيجابي من دائرة الحصار السائد ، فكانت محاولة الكتابة عن أي شيء وفي كل شيء مستهدفة واقعا ضبابيا لم يتم له الوضوح الأثير الذي استقطب هذه التوجهات الإبداعية والنقدية معا " ⁸

وتبقى الحدثاثة الشعرية على كل حال في عين الناقد الحدثائي " أبداع وخروج على م اسلف ، والمقصود بالخروج على ما سلف أي ما هو تقليدي ، وهي لا ترتبط بزمان ، وكل ما في الأمر أن جديدا ما طرأ على نظرتنا إلى الأشياء فانعكس في تعبير غير مألوف " ⁹

⁸ محمد عبد المطلب ، تقابلات الحدثاثة في شعر السبعينيات ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، 1995م ، ص :

14-13

⁹ محمد حمود ، الحدثاثة في الشعر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص: 52 .

د. سالم بن محاد بن علي المعشني

وهذا المفهوم غير المألوف المقصود به التطور الذي رافق الثورة التكنولوجية والصناعية ، وما نتج عنها من تصور جديد للحياة الجديدة التي طالت البشرية جمعاء فكرا فلسفيا ، ونتاجا ماديا " فمفهوم الحداثة عند شعرائنا الجدد مفهوم حضاري ، وهو تصور جديد للكون والإنسان والمجتمع ، والتصور الحديث وليد ثورة العالم الحديث في كافة مستوياتها الاجتماعية والتكنولوجية والفكرية " ¹⁰

وعندما يتعلق الأمر في مفهوم الحداثة بالشعر ؛ فسيختلف كثيرا عن بقية العلوم الإنسانية والاجتماعية ؛ ناهيك عن العلوم العقلية الأخرى ؛ وذلك لطبيعة اللغة الشعرية التي من خصائصها التعبير عن انفعال وليد شعور إنساني خاص لا يتوقف ولا يُحد ؛ من هنا كان الشعر أداة تعبيرية ثورية ينحت من اللغة كل جديد " والشعر في إحدى معانيه جعل اللغة تقول ما لم تعلم أن تقوله ، والأثر الشعري مخاطرة ؛ مخاطرة في التعبير بلغة إنسانية عن انفعال أو حقيقة قد لا تستطيع اللغة الإنسانية أن تعبر عنهما ، وما لا تعرف اللغة العادية أن ترجمه هو أحد مجالات الشعر ، ويصبح الشعر في هذه الحالة ثورة مستمرة على اللغة " ¹¹

بيد أن الأمر ينطلي على مخاطرة عندما يصبح الشكل الجديد - لدى تيار الحداثة - يختزل الحاضر في نمطية أحادية ؛ تكاد تكون في إحدى تجلياتها أسواء من نمطية التراث ؛ مما يعني اهتزاز المشروع برمته ، وفقدان الأمل في تقديم واقع حدائي مناسب كان العديد من الرواد قد بشروا به ؛ ليلبي تطلعات المتلقي العربي الذي تعصف به تيارات الحداثة في مختلف المجالات الفكرية ، ومخرجات الثورة التكنولوجية ، مما يستوجب -على مستوى الأدبي - مواكبة هذا التطور ، لكن الملاحظ أن الهوة اتسعت بين الطرفين (المنشئي والمتلقي) ومرد ذلك كون

¹⁰ مجلة شعر، عدد 43، صيف 1969م، ص: 72.

¹¹ أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار الفكر، بيروت، 1989م، ص: 125-126.

الحدثاثة الشعرية في عين الناقد الحديث

جسم التلقي العربي الذي تشكل الدائرة الكبيرة منه نزوعا واضحا إلى التراث لايزال مسكونا عاطفيا بالذائقة الشعرية التراثية المترسبة في وجدانه منذ عصور طويلة فلن يتقبل سريعا أي خطاب جديد خلاف الخطاب المموسق في القصيدة البيتية . ومن ناحية أخرى " فإن المحدثين تصوروا إمكانية وضع المرحلة بين قوسين بحيث تكون المرجع المفجر للشكل الجديد ، حيث صارت الكلمات موضوعها الأثير بديلا عن المرجع الثقافي المرفوض ، وانكفأت الكتابة على نفسها فيما يشبه الشعور بالذنب لأن الحدثائين أدركوا أنهم - على نحو من الأنحاء - متواطئون مع تيار اختزال الواقع في بعد أحادي عديم الجدوى ، فاندفعوا بعنف إلى حركة مضادة للتخلص من هذا الإثم الثقافي ، وجاء اندفاعهم صامتا أحيانا ثالثة ، ولعل الموقف يمكن أن يفسر وصول كتابتهم إلى درجة الصفر التي كانت مركز حركتهم إلى الصمت أو الصراخ"¹². تلا ذلك صيحات مضادة تدين المشروع الحدثائي ؛ بوصفه مشروعا غامضا مهما ، وكيانا بعيدا عن التحديد ؛ ثم مازاد الأمر تعقيدا هو النظرة المتعالية للشاعر الحدثائي الذي أخذ - بتعبير الناقد المعاصر - يبتعد عن الأرض ، ويتجه نحو السقف دون سلم يرقى عليه ! . لقد وصف عبد الغفار مكاوي الشعر الحديث قائلا : " لعله نوع من التوتر يميل إلى القلق والاضطراب أكثر مما يميل إلى الراحة والتجانس والاطمئنان ، ولعله كذلك أن يكون طابع الفنون الحديثة وهدفها بوجه عام "¹³

مقابل هذا الرأي - الذي يدين تيار الحدثاثة الشعرية - رأي آخر لأنصار الحدثاثة مبعثه أقوال (بودلير ومونتاله وبيريفردي) من الشعراء الحدثائين الغربيين . فهذا بودلير يقول : " إن تعذر الفهم نوع من المجد " ويقول مونتاله :

¹² نفس المرجع ، ص : 176.

¹³ عبد الغفار مكاوي ، ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1972م ، ص : 31.

د. سالم بن محاد بن علي المعشني

لو كانت مشكلة الشعر هي أن يكون صاحبه مفهوما لما كتب أحد بيتا واحدا من الشعر¹⁴. ويقول بيريفردي: "إن الشاعر لا موضوع له، وإنه يفترس نفسه بنفسه، وأن قيمة العمل الشعري أنه يكشف عن سبب تمزقه وربطه بين عناصر لأرباط بينها. وشرط الشعر الخالص عند الشاعر الأسباني ساليناس متوقف على قدرته على التخفف بقدر الإمكان من الموضوعات والأشياء؛ لأن هذا وحده هو الذي يتيح للغة أن تتحرك حركتها الإبداعية الحرة"¹⁵

ثم نحن أمام مواصفات خاصة، لكل من يسعى للخروج من رحم القديم إلى عالم جديد من الكتابة الإبداعية. هذا الذي سيمخر على ضفاف سفينة التحديث عليه أن يتحمل مكابدة العواصف والرياح، حتى تصل إلى الهدف، وتكون جديرا بالنمط الحدائي، والنمط الحدائي بعد ذلك كائن من مادة وروح، لا يحتمل العبث به، ناهيك أن يُتاح لكل شاعر مبحرفي يمه "إنه لايتاح للشاعر إلا بالألم الكتابي الرائع كآلم الولادة، فإذا أنت أمام خلفية فنية متكاملة لاتطبيق منك العبث بحرف منها، ولا أنت تجرؤ على أخذها بعنف، فهي كالحقيقة الساطعة المتجلية بثوب يتلألأ ببياض الجدة الذي لاعهد لك بمثله، تظلمها غمامة التراث فتخرج منها دعوة صارخة إلى عالم جديد"¹⁶

كلام حول البدايات الأولى :

لا ترتبط الحداثة - بحسب أدونيس والكثير من الباحثين والنقاد - بزمان معين؛ على اعتبار أن لكل عصر وزمن شعراؤه وحداثته، خاصة عندما يكون الحديث عن المضامين الجديدة التي هي انعكاس لطبيعة وروح ذلك العصر الذي

¹⁴ المرجع نفسه، ص: 31.

¹⁵ نفس المرجع، ص: 242.

¹⁶ يوسف الخال، الحداثة في الشعر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1978م، ص: 17.

الحدائث الشعرية في عين الناقد الحديث

كُتبت فيه . غير أن مايلفت النظر هو ما طرأ على شكل القصيدة الشعرية من تطور جديد ومغاير للنموذج التقليدي ؛ مما يستدعي الوقوف عليه .

هناك من الباحثين من يرى أن البدايات الأولى ظهرت في سنة 1855م وهو العام الذي أصدر فيه الشاعر الأمريكي " وولت وثن " ديوان " أوراق العشب"، ففي هذا الديوان قصائد تحررت من قيود الوزن والقافية ، واستخدمت لغة مغايرة للغة الشعر المعتاد ، وقد قوبلت هذه القصائد بمعارضة شديدة من المحافظين ؛ نظير ما فيها من بدعة شعرية انحرفت بوصلتها عن سنة الشعر، ومهدت الطريق " للشعر الحر " ، ثم تلقفت أوروبا الراية حتى رأينا " بولدير ومالارميه ورامبو) من أقطاب المدرسة الرمزية خاصة في فرنسا يكتبون قصائدهم بطريقة " الشعر الحر" . هذا الشعر الجديد المتحرر من "الوزن والقافية " شجع الناشئة خاصة المفتقرين إلى الملكة الشعرية وممن لم تتضح لديهم الرؤيا ، وكذلك ممن لا يمتلك ثقافة رصينة ، ولاتجربة حياتية وأدبية ناضجة ومكتملة ؛ مثل هؤلاء انخرطوا في هذه الكتابة الشعرية الجديدة . لقد وجد هؤلاء ضالهم في النموذج الشعري المتحرر من قيود الوزن والقافية ، وبعد أن وجدوا استقلالاً تاماً من أسر " الآلهة المغرورة " وهي القافية كما أطلقت عليها نازك الملائكة في أربعينيات القرن المنطقيء .¹⁷

وهناك فريق آخر يرى بداية الحدائث الشعرية وانطلاقها الأولى كانت من العالم العربي ؛ ويرجعها إلى عام 1873م متمثلة في أعمال " فرانسيس مراث الحلبي " و" أحمد فارس الشدياق " و" نجيب الحداد" كل هؤلاء ظهرت في كتاباتهم نزعة إلى التخلص من القافية والتلاعب بالوزن ، واستتباع الأسلوب السهل ، والابتعاد عن شعر المناسبات وعن شعر الأغراض . يقول فرانسيس الحلبي متحدثاً عن ديوانه : " وقد رتبته على حروف الهجاء متجرداً عن المدح

¹⁷ ينظر ، عبد الواحد لؤلؤة ، قضية الشعر الحر في العربية ، مجلة شعر ، عدد 143 ، 1969 ، ص : 57.

د. سالم بن محاد بن علي المعشني

والهجاء فإن المدح إطراء ، والهجاء حسد وعياء ، فما أحوجني إليه إلى بيع ماء
المحيا في سوق الشعر ، والله إنها تجارة خاسرة وهمة قاصرة " ¹⁸
والشدياق كتب أربعة أبيات ثم توقف . وكان يرغب في التحرر من القافية
والتلاعب في الوزن . يقول فيها :

ساعة البعد عنك شهر وعام الوصل يمضي كأنما ساعة
أب نجم الليل الطويل صباية وتنجمي النجوم ذي تفليك
ويخفق مني القلب أن هبت الصبا ويذكرني البدر المني بحالي
ألا ليت شعري كم يقاس من الندى وأنحائه قلب يذوب تجلدا ¹⁹

وهناك من يرى أن البداية الأولى كانت في عام 1902م وذلك استنادا على
ما ورد في مجلة " المقتطف " من دعوة إلى الجديد ونبد القديم . وقد ورد في ذلك
المقال " فمن زمرة الشعراء الذين ينظمون الشعر أو يدعون النظم لاتكاد ترى
واحدا في المائة يحاول مجازاة العصر ونبد القديم واقتباس الجديد وتقليد
الشعراء القدامى ، والسبب في ذلك اقتصار شعرائنا على درس الشعر العربي
وعدم الاحتفال بدرس الشعر الأجنبي " ²⁰
الثورة على القديم :

نقرأ في مجلة " شعر " سنة 1960م ، صفحة (118) كلاما " لجبران خليل
جبران " يقول فيه : " لكم لغتكم ولي لغتي ، لكم من لغتكم البديع والبيان
والمنطق ولي من لغتي نظرة من عين المغلوب ودمعة في جفن المشتاق ، وابتسامة
على ثغر المؤمن ، لكم منها ماقاله سيبويه والأسود وابن عقيل ..ولي منها ماتقوله
الأم لطفلها والمح لرفيقتة والمتعبد لسكينة ليلته " يبدو من حديث جبران هذا

¹⁸ ينظر ، د. عماد حسيب محمد ، بئار النص ، مرجع سابق ، ص : 32.

¹⁹ ينظر ، يوسف الخال ، الحداثة في الشعر ، مرجع سابق ، ص : 15.

²⁰ ينظر ، د. عماد حسيب محمد ، بئار النص ، مرجع سابق ، ص : 33.

الحدائث الشعرية في عين الناقد الحديث

أنه قد ضاق ذرعا بالتقليد ؛ والدليل على هذا ما قاله في موضع آخر مفرقا بين الشاعر والمقلد " فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها ، فالمقلد ناسجٌ كفنها وحافر قبرها" ²¹

ويعلق الدكتور عماد حسيب على كلام جبران خليل جبران هذا بقوله : " والشاعر عند جبران هو ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكيا فرحا ..ثم يخرج وبين شفثيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم فيضيف بعمله هذا وترا فضيا إلى قيثارة اللغة وعودا طيبا إلى موقدها . أما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهاال المبتهلين بدون إرادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية " ²²

ثم يدلل جبران بشواهد من ألفاظ الشعر التراثي / التقليدي مقارنة بعبارات بليغة من انشائه حيث يقول عن لغة الشاعر الحق خلافا للغة المقلد : "ذاك الذي إن أحب امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر لتلبس أحلامها أجسادا من بهجة النهار ، وهوى الليل وولولة العواصف وسكينة الأودية ، ثم عادت لتضفر من اختباراتهما إكليلا لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة . . أما المقلد حتى في حبه وغزله وتشبيهه فإذا ذكر وجه حبيبته وعنقها قال " بدر وغزال " وإن خطر على باله شعرها وقدها ولحظها قال " ليل وغصن بان وسهام " وإن شكا قال " جفن ساهر وفجر بعيد وعذول قريب " ، وإن شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال " حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعض على أناملها يبرد أسنانها ، يترنم صباحنا الببغاء بهذه الأغنية

²¹ مجلة الرابطة القلمية (1921م) ، دارصادر ، بيروت ، لبنان ، 1964م ، ص: 38.

²² د. عماد حسيب محمد ، بثار النص ، مرجع سابق ، ص: 35.

د. سالم بن محاد بن علي المعشني

العتيقة وهو لا يدري أنه يسمم ببلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالها " ²³

ويأتي بعد جبران خليل جبران ميخائيل نعيمة الذي يصرح بالدعوة إلى التجديد ونبذ التقليد يقول في المقدمة التي كتبها لمجلة " الرابطة القلمية " : " إن الرابطة ما كانت لتقدم هذه المجموعة إلى قرار العربية لولا اعتقادهم أنها قد اتخذت من الأدب رسولا لا معرضا للأزياء اللغوية والهرجة العروضية . فهي لا تدعي لهذه المجموعة أكثر مما تستحق ، فإن لم يكن لها إلا تشويق بعض الأرواح الناشئة عن طريق الأدب عن سبيل النفس لاعتن سبيل المعجمات فحسبها ثوبا ، فقد كفانا ما عندنا من المعجزات اللغوية ، وأن لنا أن نتعطف ولو بالتفاتة على ذلك " الحيوان المستحدث " الذي كان ولا يزال سر الأسرار ولغز الألغاز لعلنا نجد فيه ما هو أحرى بالنظر والدرس من رأس السمكة في قولهم " أكلت السمكة حتى رأسها " ²⁴

واضح من دعوات المهجرين أصحاب الرابطة القلمية ثورتهم على القديم ، وإن كانت دعواتهم تنصب على اللغة باعتبار اللغة بمثابة الوعاء الحامل للأدب ؛ إنما لا ينبغي فهم هذا الرفض للغة القديمة من قبيل التجني على التراث بقدرما هي دعوة للتخفف من التقليد وعدم المبالغة في استخدام المحسنات والزركشة الشكلية على حساب المعنى والمضمون ، وكذلك ينبغي فهم وظيفة الأدب وعدم حصره في العلاقات السطحية التي تغفل العاطفة والشعور الإنساني ؛ إنما وظيفته هي أسمى من ذلك مبعثها الخيال الخصب ، وتقوم من واقع التجربة الإنسانية ، وتبحث - دائما - عن خلق وابتكار كل ما هو جديد . لذلك ظهرت جراء هذه الثورة بوادر الحداثة الشعرية متمثلة في " الشعر المنثور " أو ما يطلق

²³ مجلة الرابطة القلمية ، مرجع سابق ، ص : 239.

²⁴ مجلة الرابطة القلمية ، مرجع سابق ، ص : 18-19

الحدائث الشعرية في عين الناقد الحديث

عليه أحيانا " بالنثر الشعري " هذا الشعر الجديد حدا بالأديب والشاعر جبران أن يؤلف فيهما كتابيه " العواصف و" البدائع والطرائف " ، وما قام كذلك به أمين الريحاني في كتاب " الريحانيات " .

وفي سنة 1940 م تأسست جماعة (الفن والحرية) وكان من أعضائها : أنور كامل ، وجورج حنين ، وكمال التلمساني وقد رفعوا جميعا شعار (الخبز والحرية) وأصدروا بيانا تحت عنوان (يحيا الفن المحنط) في إدانة واضحة للتقليد . ومن الكتاب من يرى أن التجربة الحقيقية لدعوات الحدائث جاءت عقب الحرب الكونية الثانية ، وقد جاء في كتاب (بدر الديب) المعنون ب (كتاب حرف ال ح) ما ذكره صبري حافظ بقوله " وأهم ما يميز هذا العمل الأدبي روح الثورة السارية فيه والتي تعبر عن نفسها بتثوير بنية الكتابة وتفجير كل علاقاتها الراسخة لتأسيس مجموعة من التقاليد الجديدة " ²⁵

وقد تلخصت فكرة التقاليد الجديدة هذه في فهم وجعل الكتابة هما ثقافيا تفرض التركيز والاهتمام على قضايا ومشاكل الوجود الكبرى ، وتحطيم كل القيود المكبلة لانطلاق الكتابة . بعد ذلك ظهرت دعوات نازك الملائكة وكتابات بدر شاكر السياب في العراق ، وظهرت في لبنان جماعة (شعر).

كتبت نازك الملائكة سنة 1949م في مقدمة ديوانها (شظايا ورماد) تقول : " إن الشعر العربي لم يقف بعد على قدميه بعد الرقعة الطويلة التي جثمت على صدره طوال القرون الماضية فنحن عموما مازلنا أسرى تسييرنا القواعد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية وصدر الإسلام " ²⁶

وتظل الحدائث الشعرية العربية تبع للحدائث الغربية؛ فمنها المقبول ومنها المرفوض ؛ إن كانت على مستوى الرؤية والمضمون ، أو كانت تتعلق بالخصائص

²⁵ د. عماد حسيب محمد ، بنار النص ، مرجع سابق ، ص: 38

²⁶ ديوان نازك الملائكة ، شظايا ورماد ، م2 ، دار العودة ، بيروت ، 1979م ، ص: 7-8 .

د. سالم بن محاد بن علي المعشني

الفنية . والحداثة الشعرية مثلت - في بعض جوانبها - قطيعة مع القديم والحديث معا مهما كانت قيمة هذا القديم وقداسته . ثم اتسمت شعرها بتضخيم الذات ، والشعور بالغرابة الروحية ، والغموض بنوعيه ؛ المقبول والمنقطع ، كذلك اتكأت على الرمز والأسطورة . وتظل الحداثة العربية لون من ألوان التجريب المستمر ؛ تسعى جامحة للخروج من الثابت والمستقر ، مكتنزة بكم هائل من التعالي ؛ ساعية إلى ولوج منطقة المحرمات الإبداعية ؛ الأمر الذي قد يثير حفيظة المتعصبين على التراث القديم ، أو قد يصدم ذوق المتلقي في ذوقه ومعتقداته .²⁷

في الخمسينيات والستينيات احتدمت المعركة بين أنصار القديم ، وأنصار الجديد ، بلغت ذروتها في بيان (لجنة الشعر) التي تصدى فيها المحافظون على دعوات الحداثيين التي مرت بنا ؛ حيث جاء في هذا البيان : " إن مراجعة سريعة لكثير مما يسمى بالشعر الجديد تؤكد على أن أصحابه واقعون تحت تأثير منافية لروح الثقافة الإسلامية العربية . . مما يجعل كتابتهم مرفوضة .. لأنها تشيع في كياننا العضوي عنصرا غريبا .. ويظهر في شعرهم ميلهم الشديد نحو الاستعانة في التعبير بعناصر يستمدونها من ديانات أخرى .. مثل فكرة الصلب وفكرة الخلاص"²⁸

ويلخص عماد حسيب سطوة المحافظين فيما يرويه في كتابه (بئار النص) أنه عندما كتب صلاح عبد الصبور " قصيدته (الناس في بلادي) كان التقليديون يحتلون القلاع والمنابر ؛ قادمين - بتعبيره - من العهود القديمة ؛ والمثل الأعلى عندهم شعر المعري والمنتبي " كانت شمس (أبللو) قد غربت بلاعودة ،

²⁷ ينظر ، إبراهيم محمد عبد الرحمن ، الحداثة الشعرية ، رؤية موضوعية ، كلية الآداب ، جامعة العريش ،

مصر ، 2020م ، ص: 87-88

²⁸ غالي شكري، ذكريات الجيل الضائع، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984م، ص: 87-94

الحدائفة الشعرففة فف عفن النافء الءءفء

والءمسفنفااء ءففء بالفلول والأشباه المقلءفن بلا ومضة شعر ، وطه ءسفن والعقاد - الغرفمان ففئصبان ءارسفن على البوابة الأدبفة فمئان - أو فمئعان - ءصارفء الءءول .. أءهزة ءءومفة راسءة ءمءلك فاعلفة ءءاأل وءمئءهما القوانفن واللوائء ءذا الءق ، بل ءفرضه علها وظففة وءورا ، وفكون من ءق العقاء - بءكم منصبه البفرورقراطف - أن فقوم بالءأشفر على ءفوان صلاء عبء الصبور إلى لءنة النشر للاءءصاص²⁹

ومهما فكن من أمر الءلاف بفن الءءفء والقءفم ؛ إلا أننا لانءءم أن نءء بفن أولئك وهؤلاء من فقف وسطا وفءعو إلى ءءاءة معءلة ؛ رافضة للءطرف الإباءف الءف فبءءء ءءفرا بقمف ءءءفء ، أو فءماهى فف القطفعة مع ءارفء . ولنا شواءء وأمءلة ءفة فف مءموعة من الشعراء المعاصرفن الكبار من أمءال (عمر أبورفشة ونزار قبافف وعبءالله البرءونف ومءمء الءواهرف) وفرفهم الءءفر ؛ من الءفن ظل ءءءفء وكءلك ءءرفب ءاأل قالهم العموءف ءاآسا مءالفا لءفهم . ومن قبلهم كان بءر شاكر السفاب ونازك الملاءكة ومن فآرف مآراهما فف شعر ءءفعلفة على نفس المسافة فف الاءكاء على ءااا والانءلاق منه ، والءأسفس علها ، وبالمقابل ءءفاعل مع المسءءءاء وظروف العصر ومواكبة الءءاءة الءءفءة بالءطاب الشعرف الءءفء والمنءلق من هموم الءاء ، والمعبر عن الفومف والسائء من الأحداث .

على أن المراقب للشأن النقءف لن فغفل ءلك الءعواء النقءفة والءنظفرفة لغلاة ءفار الءءاءة ؛ والءف ءطال فف أطروءاها (الموفسقف الشعرف) ؛ زاعمة بأنها ءعفق ءءلفق فف فضاءاء الءءاءة والءرفب ومن منءلقات شبه منآزة إلى الفسار الءءافف المءطرف فف ءورة على كل ما فءمل مظهر القءفم.. وءلا ءلك اءآاهاء نقءفة ءنءءج الإفاء الءازم بعءم صلاءفة العموء الشعرف لاسءفعاب

²⁹ ء. عماء ءسفف مءمء ، بئار النص ، مرجع سابق ، ص : 40

د. سالم بن محاد بن علي المعشني

التغيرات المتسارعة في عجلة الواقع وامتصاص تشعبات وتناقضات وتداخلات
أعراض الحداثة الإنسانية وما يسمى "العالم الحديث"

بءأ المشروع الءءافف كما مربنا كأف مشروع آءرله إرهافاف وإن كانف إرهافاف بسفطة آءاول - على اسآءفاء - أن آءقم نفسفا فف ءركة الآرفف الشعرف الءءف . وظلف البءافاف الأولى مءفوفة بالقلق وعءم وضوح الرؤفة ؛ لكن النقاء والشعراء ما برءوا فمءءون الطرفق للءروج بها من عباءة الآلففء ؛ باءآبار الءءافة الآف فبشرون بها بمآابة الكائن المآءاوز والمناهض للقفءم . إنه ذلك الآئر الءف فطمء بكل اصرار أن فكشف أو فمءك الءجب ؛ بففة آءقفم رؤفا ءءفءة ومآآلفة للواقع . وءءبر مرءلة السآنفاف والسبعنفاف من المراحل الآف أسسآ فعلا لكل ما آلا من ءءافة شعرفة فف النهوض بالآآابة الشعرفة ، والءروج بالنص المفافر للقفءم إنْ على مسآوى المفهوم أو الشكل . وإذا كان ءفل السآنفاف باسآثناء القفلل منهم لم فسآطففوا الفكك من عباءة القففم والماضف ؛ فإن شعراء ءقبة السبعنفاف أءهزوا على ما آبقف من القصفءة الآلففءفة ، أو ما فعرف فف مصآلف النافء الءءف ب " قآل الأب " وما لبآ الأمر عئء شعراء قصفءة النآرءى بالءوا فف القآل إلى ءرءة " الآمآفل " !³⁰

آمآض عئ هذا الصراع بفن القففم والءءف ما فلاحظه المآابع للمشهد النقءف - وفف مءال الشعر آءفءفا - من مظاهر فنفة ءءفئة - لا فسآهان بها - لءف شعراء الآفعفلة ، أو ما فسمى بالشعر الءر ، وكذلك لءف شعراء قصفءة النآر ؛ الأمر الءف ساهم فف بناء ما فعرف بالشعر الءءافف . هذا الشعر الءف ظهر ءلفا من ءلال رواءه فف الرفع الآخر من القرن العشرفن ، وقءم نفسه كوءه من وءوه الءفة الفكرفة / الأدبفة ، وسنة كونة فف سلم الآطور البشري ءون أن فلفف القصفءة الآرففة / الآلففءفة.

³⁰ نفسه ، ص : 41